طرف أول

مروة الجمل- مصر

عند حافة المغيب، فوق صخرة متطرفة جلست تودّع بقايا حبه، تلملم شتات عقلها وتقلبات قلبها، تحاول الامساك بأي طرف للحكاية، فالبدايات متشابهة، وكذلك النهايات، تحاول خط بداية مشوقة للحكاية ونهاية مؤلمة تُبكي القُرّاء، وتترك أثرًا سوداويًا في نفوسهم، ولكنها لم تجد سوى ضحكات عالية تخرج منها، تجعل طوب الأرض النائم حولها بين الثرى يهتز ضاحكًا، تهتز صخرتها، تضحك، تتحرك الصخرة، تضحك، تميل باتجاه الحافة، تزيد من عرض ابتسامتها، تلمع عينيها، يعود إليها بريق افتقدته منذ رحيله، صرخات تأتي من خلفها، أناس خائفون، ترتعد أوصالهم، بينما هي منهمكة في الضحك، وكأنها تصرخ ضحكات متتالية، تميل بجسدها للأمام، تود رؤية المنحدر الصخري بشكل أوضح، تزداد الصرخات:

احذري! ربما سقطتي.

لا بأس، أود ذلك بشدة.

يمسك يدها، يجذبها بعيدًا عن الحافة، كان الجو بارد جدًا، يدها كقطعة ثلج، خرجت توًا من ثلاجة موتى، تتلون أظافرها بلون أزرق، عانق يدها بيده الدافئة، شعرت بالدم يسري بعروقها نابع من قلبه، مارًا على عقلها لبضع ثوانٍ، ولكنها

سرعان ما دفعته بعيدًا عن العقل، نظرت تجاه عينيه مباشرة، في محاولة منها لقراءة ما يجول بباله، ضمها إلى صدره في حنان، ظلت في ذلك العناق الدافيء حتى تعرّق جبينها، مسحت وجهها بصدره، فاستنشقت عطره.

- أُحبك منذ عامين وأكثر.

قالها فضحكت، لم تجد كلمات تجيد التعبير عما تشعر به كما تفعل الضحكات، كرر جملته " أحبِك منذ عامين وأكثر يا حلوة " توقفت عن الضحك، فنظرت مباشرة في سواد عينيه، هزّت رأسها رفضًا قائلة من وسط الدموع:

-لا تكن لطيفًا، ولا تبدأ الحكاية.

-أي حكاية؟

-الحكاية التي تبدأ بأحبِك وتنتهي بآسف، أو بالصمت.

-ولكني مختلف.

ضحكت ..

كلكم مختلف، تقولون كذلك ولكن الحقيقة أن لا أحد مختلف، لا أنت، لا هم، لا البداية، ولا النهاية، كلها حكاية واحدة كتبها صانع الحكايا، بدقة ومهارة وبلاغة شديدة، تتماشى مع كل الوجوه والقلوب، وحتى مع العقول، الطبقات الاجتماعية، و الثقافات.

نظر إليها مطولًا، ضمها لصدره مرة أخرى، دفعته، حاولت الهرب من عينيه، تبعها بشوق ولهفة، سقطت وكُسرت قدمها، اقترب، حملها، بكت؛ فقد علمت لتوها أنه قد بدأ الحكاية.

كل حكاياتها بدأت بكسر، فيلتئم، ثم تنتهي بكسر أكبر، أخذها للطبيب أحاط قدمها بجبيرة من الجبس، زادت فوق وزن أحزانها وزنًا صلبًا ولكنه أبيض شاهق كما بياض قلبه حين ينظر لها قائلًا أحبِك.

يوم بعد يوم، أسبوع يلي أسبوع، ومازالت الجبيرة على حالها، ومازال قلبها ينبض على مهل، حتى ازدادت نبضته نبضة واحدة، حينها علمت أنها سقطت في بئر حبه، تشبثت بحبل العقل الذي أخبرها بأنها لن تكون سوى طرفًا ثالثًا في حكاية منتهية قبل أن تبدأ، ولكنها قطعت الحبل بسكين تلمة؛ لم يتمزق كليًا فبقيت منه شعرة واحدة ظلت متمسكة بقوتها.

تعلق القلب، وأخذ العقل هدنة، ذهبت الجبيرة إلى حال سبيلها، وبقي هو، هي من طلبت العناق تلك المرة، كانت تشعر بالودة، تود لو تختبيء بداخله، يحيطها بذراعيه، ويقضمها بشفتيه، يلتهمها حتى لا يتبقى منها شيء خارجه، فيصبحا كيانًا واحدًا، فعل مثلما أرادت، وأصبح رجُلها، وأصبحت امراته، تبادلا الحب واللهفة والمتعة، تذكر بعد مرور الكثير بأن هناك طرف ثانٍ بالحكاية، بطل آخر كان يملك الحكاية قبلها؛ فآثر البعد.

طلب منها الانتظار، كان يعلم انها لن تطيقه، ولكنه أصر، رحل وتركها وحيدة مع خيبة جديدة، انطفأ بريقها الذي كان قد عاد إليها معه، ذبل جمالها، فلم يعد هناك حب يسقيها، أصبحت هشة جدًا، كورقة خريف صفراء مثقوبة، عادت البرودة تحيط بجسدها، وأنظار الجميع تفتك بها، وكأن العالم أجمع قد علم بوحدتها مرة أخرى.

عاد إليها يحمل خيبته لم يستطع فسخ التعاقد مع الطرف الثانِ صاحب الحكاية الأصلي، يريد الكثير من المال كي يترك هذا الدور لها، دور البطولة لم يكن متاح لها، عاد طالبًا منها أن تأخذ دورًا ثانويًا في هذه الحكاية حتى يتسنى له تدبر أمره مع الطرف الثاني، بغباء طفلة لم تخرج من منزل والدها وافقت، وسلّمت له اختام ومفاتيح حياتها، منحته الكثير من الحقوق، ولم تأخذ منه أي من الواجبات، رضيت بنص قلب، لنصف رجل، بنصف حياة، ولكنه رغم كل ذلك، لم يمنحها حتى أقل من القليل من هذا النصف، كان انانيًا جدًا، ضعيفًا جدًا، أصغر من يحارب نملة من أجلها، رحل مجددًا دون سابق إنذار، تركها للخيبة مرة اخرى، احتضنتها الخيبة، وربتت على قلبها، انهارت، سقطت، باتت تمثل أدوارًا ثانوية، تقوم بدور الكومبارس في حكايا الآخرين، لم تعد بطلة حكايتها، تركت روحها للتيار، يأخذها أينما شاء وكيفما يشاء، تبدلت، أصبحت امرأة أخرى لم تعد تتعرف إليها مرآتها، أنكرت صلتها بهذه المرأة، وتركتها تفعل ما يحلو لها، على أن لا تتركها وحيدة تبكي وتعانق وسادتها كل ليلة.

مر الكثير وعاد إليها باكيًا باحثًا عن نصف روح كان قد تركها بداخلها، يطلب منها أداء دورها كبطولة مستترة خلف البطل الأصلي للحكاية، دفعته وتمردت على حكايته:

-لم اعد بطلتك، ولم تعد بطلي، لم تعد بيننا حكاية مشتركة.

-ولكني أحبك.

-ما أسهل الكلمة، وما أصعب إثباتها.

-أنتِ إدمان لقلبي.

-المصحات كثيرة يا عزيزي.

-ولكني لا أريد الشفاء منكِ.

-ولكني شفيت، ولن أعود.

-أنت الطرف الأول بالحكاية أنا نفسي لا أستطيع القيام بالدور وحدي.

-لا آخذ بطولات مشتركة، فإما أن اكون البطل الأوحد أو لا أكون.

-ستكوني.

-متى؟

-لا أعلم، لا يمكنني أن أعدك بشيء.

-حسنًا وكذلك أنا، لا أستطيع أن أعدك بشيء.

-هل ستتركينني.

-لا! بل ساترك نفسي القديمة معك، تلك التي رضيت بنصفك، أما أنا فلن أقبل بنصف دور مرة اخرى، أنا سأكون الأولى والأخيرة، سأكون كل الأطراف، الطرف الأول والثاني والثالث، لن أسرق حكاية امرأة أخرى، فقد سبق وذقت مرارة تلك السرقة، انا ياعزيزي لن أكون سوى طرف أول.

تركته وعادت لتجلس عند حافتها، الآن تمتلك خط البداية، وحبكة الوسط، ومفاجأة النهاية، أمسكت بقلمها وخطت..

أما بعد،،

لم أجد هنا من يعتبرني طرف أول في حكايته، ولكن مؤكدًا أن هناك أحدهم بانتظاري أسفل ذلك المنحدر.